الطاقة الروحية

تميز الإسلام بنوع آخر من الطاقة التي ربما لا تتوفر إلا لأبنائه، وهي ما يمكن أن نسميها بالطاقة الروحية، لدرجة أنها ربما تكون الطاقة الأقوى والمحرك الأقدر على تحريك ودفع المسلمين نحو تحقيق هدف ما، وهي إحدى الطاقات الهامة التي تحقق نتائج فورية، خاصة على صعيدي الاقتصاد والبناء، وهي طاقة مستمدة من الشعائر الدينية، ولعل ذلك يفسر كون العبادات في الإسلام توقيفية، لدرجة أن الحركات الروحية للعبادات تحمل العديد من التأثيرات التي تم رصدها، وثبت من خلالها حصول المسلمين على مجموعة من الفوائد التي رصدتها الأبحاث العلمية، فعند قياس الطاقة الروحية عند الوضوء، والصلاة، وقراءة القرآن، وأداء الأذان، تتجمع الطاقة وتختزن في مناطق دهون الإنسان، لأن الدهون عازلة تعزل ما في داخل جسم الإنسان من رنين، وتتجمع فوقها أيضا وفق ما قرره علماء الطاقة الذبذبية التي علقت بجسم الإنسان خلال الحياة اليومية.

وعند غسل مناطق الوضوء وهي تلك الأجزاء الظاهرة من جسم الإنسان التي تتعرض للطاقة الذبذبية الصادرة تسقط مع ماء

الوضوء، وهذا من أسرار الوضوء في تأهيل الإنسان للتركيز في الصلاة.

وهو نفس الأمر الذي يكاد أن يتكرر في العبادات الحركية، حيث ثبت من خلال التجارب أن الطاقة الموجودة عند رفع الإصبع في اليد اليمنى أثناء التشهد هي فقط التي تعطي الطاقة الروحية، وأن رفع الإصبع في اليد اليسرى لا يعطي طاقة روحية مطلقا، وكذلك بالنسبة للعبادات الصوتية مثل الأذان وقراءة القرآن الكريم، لذلك طاقة الإيمان في الإسلام هي الطاقة التي نحيا بها ولا غنى لنا عنها، حيث تمثل بالنسبة لنا ضرورة لا تقل أهمية عن الهواء الذي نتنفسه، ولكن لأنها طاقة غير مرئية، فإن البعض لا يدرك أبعادها ولا الطريقة المثلى لتوجيهها.

وحتى نتمكن من استثمار هذه الطاقة، فلابد من معرفة أنها طاقة إيجابية مقابلة لطاقة سلبية أخرى وهي طاقة الظلمة والظلام والظلم، وربما تكون طاقة هادمة يستغلها شياطين الإنس والجن.

وبالتالي فإن الطاقة الروحية طاقة بحسب التوجيه، بمعنى أننا نستطيع توجيهها نحو الخير، فإذا بها خير معين عليه، وربما تستثمرها بعض النفوس الشريرة، فإذا بها معول هدم لكل القيم الإنسانية، كما أن مسألة استغلال الطاقة الروحية في عمليتي البناء والتعمير تبلغ من الأهمية درجة تجعل منها المدخل الأول الذي تجب مراعاته عند مخاطبة الشعوب، وهو الأمر الذي يحيلنا إلى ضرورة فتح الخطاب الديني والطريقة التي يجب أن يكون عليها.

والحقيقة أن قضية الخطاب الديني من القضايا التي من المفترض أن تكون على رأس أولويات علماء ومفكري الإسلام في تطوير وتوجيه الطاقة الروحية لأنه عن طريقه وحده يتم إيصال المعلومات الدينية ومعالجة القضايا الملحة وهو ما يتطلب طرقا وأساليب تؤدي الغرض المبتغى من الدعوة.

فمن سنن الله في خلقه أن تظل البشرية دائمة الاحتياج إلى من يذكرها بتعليم الدين وتأخذ بأيديها إلى طرق النور، حاملين معهم الرغبة في هداية الناس والوصول بهم إلى مستويات أخلاقية واجتماعية لا يمكنهم الوصول إليها إلا من خلال التعاليم الإلهية، التي تحتاج إلى ناقلين يجيدون عرض القضايا الدينية بما يتناسب مع طبيعة الحال.

الأمر إذن يحتاج إلى نوعية خاصة من البشر يصلحون لاستكمال الوظيفة التي سبقهم إليها الأنبياء والمرسلين، وبالتالي فإن ضرورة تحليهم بصفات خاصة بات أمرا في منتهى الأهمية، خاصة وأن ما يقومون به يتعلق بأمر قد تستثقله النفوس وبالتالي إن لم يقدمه لهم شخص يهون الأمر عليهم ويربطهم بعلاقة خاصة بما يأمرهم به من تكاليف ويوسع الفجوة بينهم وبين ما يدعوهم للكف عنه من منهيات، فإن المسألة سوف تبدوا صعبة عليه وعليهم، لذلك فمن المفروض أن يدرك العاملين بحقل الدعوة أن من يقتحم هذا المجال لابد وأن يتم تأهله تأهيلا خاصا، سواء على المستوى العلمي والأكاديمي أو على المستوى الشخصي والنفسي،

لأن هذا التأهيل سوف يقرب المسافة إلى حد كبير بين الدعاة والمدعوين، لأن الخطأ الذي يقع فيه الكثير من الدعاة هو أن معظمهم يظن أنه لمجرد انه يملك كما كافيا من المعلومات، فإنه يكون مؤهلا للممارسة الدعوة كداعية، وذلك نظرا للخلط بين أن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين الدعوة كرسالة أو وظيفة، لأن الأمر بالمعروف كواجب يتشارك فيه كل المسلمون كل على قدر معلوماته وعلى حسب قدراته، ولعل هذا الواجب هو المقصود من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان"، لكن اللبس الذي يحدث يتعلق بمن يغير المنكر وكيف، خاصا أن العلماء كما اصطلحوا على أن المعروف درجات فقد اتفقوا أيضا على أن المنكر دركات، وكما أن لكل درجة من درجات المعروف رجالها الذين يذبون ويدافعون عنها، فإن لكل دركة من دركات المنكر من يقاومها ويصدها ويقف في وجهها.

ومن هنا فلا بد أن يعرف الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أن لما يقومون به من واجب له حدود لا يفترض لأحدهم أن يتجاوزها أو يتخطاها، لأن تجاوزها سوف يضر بالدعوة وربما أدى إلى نتائج عكسية.

فتغير المنكر وكذلك الأمر بالمعروف يحتاجان إلى اختيار الأسلوب المناسب والشكل المناسب والتوقيت المناسب، لأنه ربما يمتلك احد الدعاة كل المقومات التي يفترض أن توصله

إلى غايته من الدعوة لكنه لم يتخير الوقت المناسب، فيضيع كل ما بذله من جهد وربما أضاع أيضا الفرصة على غيره من الدعاة وتكون النتيجة أن الدعوة تخسرا شخصا كان من الممكن أن يتأثر بالأمر بالمعروف أو بالنهي عن المنكر.

ورغم الاجتهادات المأجورة إن شاء الله التي يقوم بها بعض مشايخنا في ابتكار طرق جديدة أو دعونا لا نقول جديدة ونتفق على أنها طرق خاصة بهم في الدعوة، كأسلوبهم في الحديث ونبرات صوتهم واختياراتهم لمواضع استخدام الإشارة وتداخلاتهم مع المخاطبين وانفعالاتهم وغير ذلك من لوازم الداعية التي يعرف بها ويميز بها عن غيره ويقصده من أجلها جمهور معين، يحب أن يستمع إليه، وهذا بالطبع أمر محمود ينبغي أن نشجعه وننميه عند جميع الدعاة، لكن المستهجَن أن ينتحل بعض الدعاة شخصية غيرهم، فيتقمصون شخصيتهم ويرددون عباراتهم، بل ربما يحفظون خطبهم ومواعظهم ويلقونها كما هي على الناس، وهنا يقع المحظور الذي ربما لا ينتبه إليه البعض، وهو عدم مراعاة مقتضى الحال، الذي هو من أولويات ما يجب أن يتعلمه الداعية، لأن المقصود من مقتضى الحال أن يوجه الداعية فئة ما من الجمهور إلى تحقيق هدف ما، وهذه الفئة بالتأكيد لها ثقافتها الخاصة وفكرها الخاص الذي ينبغي مخاطبتها واستهدافها من خلاله، وعند هذا الحد يمكن للخطاب الديني أن يلعب دوره المرجو في الطاقة والاستفادة منها بصورة مباشرة، خاصة أن

الديـن عندمـا يخالـط القلـوب ويخاطـب النفـوس، فـإن ذلـك مـن شـأنه أن يولـد طاقـة أكـبر بكثـير مـن أي طاقـة أخـرى يمكـن أن تتحقـق في الظـروف العاديـة.

ومـن المعـروف أن الطاقـة الروحيـة عبـارة عـن لحظـات مـن الصفـاء الروحـي والنقـاء الداخلـي، الـتي تجعـل صاحبهـا يبـذل جهـودا إضافيـة معـززة بابتغـاء الأجـر في الداريـن (الدنيـا والآخرة).

هـذه الطاقـة هـي الـتي اسـتخدمها النـبي صلـى الله عليه وسـلم، في حالـتي السـلم والحـرب، اسـتخدمها في أوقـات السـلم لبنـاء المجتمـع الفاضـل وفي أوقـات الحـرب لاسـتنفار الهمـم والطاقـات.

ففـي حـال السـلم، كان تأكيـد الإسـلام واضحـا علـى أن العمـل واجـب لا مفـر منـه، وأن المعوقـات عـن هـذا الواجـب لا بـد مـن إزالتهـا والتغلـب عليهـا، فـإن مـن نعـم الله علينـا في هـذا الديـن أن العمـل لـه صـالح في كل الأعمـار، للصغـير والكبـير، حيـث يقـول تعـالى "وَاعْبُـدْ رَبَّـكَ حَتَّـى يَأْتِيَـكَ الْيَقِـينُ" (الحجـر – ٩٩).

وعلـى الرغـم مـن ذلـك حـذر الإسـلام مـن خطـر الانهمـاك في الدنيـا علـى حسـاب العمـل للآخـرة، ولكنـه أمسـك بزمـام التمكـين في الدنيـا والآخـرة، خاصـة أن المسـلم لا يندفـع للعمـل، إلا عندمـا تكـون لـه صلـة قويـة بربـه، ولذلـك كان العابـدون أعظـم المندفعـين للعمـل، لأن صلتهـم القويـة بـالله عـز وجـل كانت تجعلهـم يغتنمون أوقاتهـم في العمـل للديـن.

والغريب أنك تجد في الإسلام ربطا بديعا بين الطاقتين، الروحية والجسدية، وكأن الجسد قد يتأثر بهمة النفس وكأن النفس هي الأخرى قد تتأثر بهمة الجسد، ولكن هناك فارق واضح بين كلا التأثرين، فالجسد ينهض ويعمل إذا استنفرت الروح، وربما يحدث العكس عندما يستنفر الجسد فقد تخبو الروح وتتكاسل عندما يرهق الجسد، فإن كانت النفوس كبارا تعبت من مرادها الأجسام .

لذلك كان خطاب الإسلام للطاقة الروحية، خطاب العالم

بأسرارها المدرك لخفاياها، وهو الأمر الذي تمكننا ملاحظته من خلال التكليفات الشرعية التي كانت تراعي حالة النفس البشرية، لدرجة أن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم حدثوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتخولهم بالموعظة الحسنة كراهية السآمة، ومعنى ذلك أن النفس التي هي مستودع الطاقة الروحية يتطلب الحديث إليها نوعية خاصة من الخطاب الذي لا تكرهه ولا تمله، حتى وإن كان هذا الخطاب صادرا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يمل المحيطون به من الاستماع إليه، ولكن لأنه ﷺ طبيب النفوس، كان المتوقع الذي طابق الواقع أن يدرك صلى الله عليه وسلم طبيعة النفس ويتعامل معها انطلاقا من ذلك.

وهذا هو المعنى الذي يحيلنا إلى حقيقة التنوع في الخطاب النبوي الكريم الذي يتشكل وفق طبيعة الحالة، ما بين محفز للهمم أو داع للعمل أو مطيب للنفوس، كل ذلك من شأنه أن

يضع صياغة للطاقة الروحية تساهم بشكل مباشر في حركة بناء المجتمع.

وعلى خلاف ما يتصوره البعض، فإن الطاقة الروحية، ليست مجرد شحنة إيمانية يمكن تزويد النفوس بها من خلال الحديث عن روحانيات أو غيبيات أو سير، ولكنها في الحقيقة أهم من ذلك بكثير، لأنها من وجهة نظر الإسلام، طاقة عامة تشمل جميع أحوال الإنسان، خاصة وهو يعلم أن النفوس البشرية لها أحوالها من الإقبال والإدبار والنشاط والفتور والهمة العالية والخمول، فكان الفيصل أن القلب عندما يعمر بالإيمان بالله تعالى تكون الهمم أقرب إلى العلو والارتقاء، وذلك من خلال استشعار أن المسؤولية أمام الله تعالى هي الأساس لأي عمل يراد له النجاح، فعندما يعلم الإنسان أي إنسان أن مسؤوليته في عمله الذي يمارسه إنما يرتجى من ورائها وجه الله سبحانه وتعالى، فإنه من غير شك سوف يضاعف من جهوده، لأن هذه الجهود سوف تكسب ميزة إضافية، باعتبار تحقق الطموحين الديني والدنيوي، وهو ما يؤدي إلى مضاعفة الجهد والرغبة في بذل المزيد، مما يحقق قاعدة الصلاح قبل الإصلاح والإخلاص أساس النجاح، خاصة أنه بقدر إيمان المرء بآخرته يكون عمله في دنياه، لأن من تعلقت همته بشيء بذل دونه الغالي والرخيص، وهانت في سبيله المتاعب والآلام.

والمعروف أن المرء يبذل بقدر ما ينتظر من ربح، لدرجة أنه قد يغامر بنفسه، ويلقي بها في المخاطر والمهالك إذا غلب على ظنه أنه يُحصّل المزيد من الربح والكسب، فلا يلومه لائم في ذلك مادام حجم المكاسب يستحق المغامرة، هذا في طلب الدنيا، أما عندما يكون الأمر متعلقا بالآخرة فإن الجهد يتضاعف ويتعاظم وذلك من خلال الدمج بين ثوابي الدنيا والآخرة الذي تحدثه الطاقة الروحية، حيث يتضح ذلك من خلال السيرة النبوية العطرة، كما في قصة الأعرابي الذي بلغت الطاقة الروحية عنده ذروتها فعزف عن الدنيا وما فيها طلبا للآخرة وما فيها، فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن، فلما كانت غزوة خيبر غنم المسلمون غنائم فجعل رسول الله ﷺ يقسمها بين المسلمين، فقسم له رسول الله حصة من الغنائم فقال الأعرابي المؤمن: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا بسهم، وأشار إلى حلقه، فأموت في سبيل الله فأدخل الجنة، فقال الرسول ﷺ : "إن تصدق الله يصدقك" ولم يلبث القتال أن احتدم بعد قليل حتى إذا انجلت المعركة أتي بالأعرابي وقد نفذ سهم من حلقه فأرداه شهيدا، فقال الرسول ﷺ: "أهو هو ..؟" قيل: بلى يا رسول الله، قال: "يرحمه الله صدق الله فصدقه".

وبمثل هذه الطاقة الروحية تمكن النبي ﷺ من بناء مجتمع المدينة المنورة، حيث شهد العالم قوة روحية تفوقت

اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا.

فقد انطلق مجتمع المدينة، بما يمكن أن نطلق عليه عقدا اجتماعيا لم يشهده العالم من قبل، حيث جعل من المصالحة مع النفس عنوانا عريضا لحركتي البناء والتأسيس، ولولا ذلك ما ظهرت حالات التفاني والإيثار التي بلغت مبلغا قال عنه الحق سبحانه وتعالى " وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ " الحشر- ٩، فلم يشهد العالم من قبل أن يتنازل الأشخاص طواعية عن ممتلكاتهم للغير دون مقابل إلا في تجربة دولة المدينة المنورة، التي انطلقت من خلال وثيقة سيجت العمل العام بسياج إيماني كان من شأنه أن يدعو المنضوين تحت لوائه إلى التنافس في العمل العام محتسبين ذلك قربة لله سبحانه وتعالى، وهو الأمر الذي يمكننا أن نفرق به بين الأوامر التي يتلقاها المواطنون في أي دولة من قبل أولي الأمر وبين أوامر الله ورسوله لسكان الدولة الناشئة "المدينة"، حيث دائما ما يقابل أي مجتمع أوامر وتعليمات الرؤساء بشيء من الضجر والتأفف وعدم الارتياح والرغبة في التحايل على هذه الأوامر، لكن في مجتمع المدينة وبفضل الشحن الروحي والإيماني، تلقى المسلمون أوامر الله سبحانه وتعالى برغبة في التسارع على تنفيذها وتطبيقها، لدرجة أنه لما نزل قول الله تعالى " إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ " (البقرة – ٩٩)، أريقت الخمور في شوارع المدينة حتى فاضت بها السكك، وهو ما يدل

على قوة النزعة الروحية في تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي.

غير بعيد عن ذلك، لما شُغل المسلمون يوم حنين بجمع الغنائم وكادوا أن ينصرفوا عن رسول الله ﷺ، عادوا لمواقعهم لمجرد أن سمعوا النداء النبوي "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب".

وتتضح معالم الطاقة الروحية بشكل أوسع في العبادات الموسمية مثل الحج وصيام رمضان، حيث تولد هذه النوعية من العبادات طاقة إيمانية لا يمكن أن يتحصل عليها الفرد إلا من خلالها، نظرا لما تحمله من إشعار بوحدة الصف ووحدة الكلمة ووحدة الهدف، فعندما يمسك المسلمون مثلا عن الطعام والشراب في وقت واحد، وعندما يتوحدون كذلك في الإفطار وكذلك عندما يتفقون في أوقات أداء مناسك الحج فإن ذلك يمنحهم قوة من شأنها أن تقودهم لتحقيق جميع الأهداف على كل المستويات.

وقد تشعر بهذه الطاقة مثلا من خلال تلبية الحجاج، تشعر وكأنهم يرددونها بأصوات تزلزل الأرض، وهي في الحقيقة قوة نستطيع تلمسها على أرض الواقع عندما تكون مقرونة بعمل ما، ولك أن تتخيل الأمة وهي تقوم بعمل ما محاطا بهذه الأجواء الإيمانية، أتصور أن حجم العطاء سوف يتضاعف.

المثال الأقرب إلى ذلك الحروب التي قادها المسلمون في شهر رمضان وكيف كان الصيام الذي من المفترض أن يكون مصدرا

للهزال والضعف وقد تحول إلى مصدر للقوة، وهو الأمر الذي يفسر سر انتصار المسلمين في كل الحروب التي خاضوها في شهر رمضان المبارك، خاصة أن فكرة تحقيق الاستفادة من العبادات في تحسين الأخلاقيات وتقويم السلوك تبدو في أجلّ معانيها أثناء أوقات الصيام، التي يسمو فيها الصائم إلى درجات من الرقي تجعله يكاد أن يصل إلى منزلة الملائكة، حيث تتغلب الجوانب الروحية على كل الماديات الحسية والمعنوية.

فالصائم الذي يتخلى عن طعامه وشرابه وشهوته وجميع متطلباته الجسدية، يتخلى في الوقت ذاته عن كل شواغل الدنيا ومكابداتها ليعيش جوا من الصفاء الذي يعيده إلى الفطرة النقية التي فطر الناس عليها.

وكأن مهمة الصيام هي استعادة طبيعة الجبلة الإنسانية التي فطرها الله سبحانه وتعالى على الطاعة، لولا الشواغل والطوارئ التي تطرأ عليها بين الحين والآخر، منتقلة بها من

حالة الصفاء التي هي الأساس إلى حالة التلوث النفسي والروحي، التي غالبا ما تحدث بسبب المطامع والرغبات والدوافع الداخلية المترتبة على إلحاحات النفس الأمارة بالسوء والدوافع الخارجية المتمثلة في وساوس شياطين الإنس والجن وما يلي ذلك من فساد القرائح واعتلال النفوس وضعف البصيرة وصدأ القلوب، حيث يقول النبي ﷺ فيما يروي عن رب العزة " إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين فحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم

أنـزل بـه سـلطانا" الأمـر الـذي يتطلـب جـلاء ربانيـا تمكـن مـن خلالـه اسـتعادة نقـاء الفطـرة إلى الحـد الـذي قـال عنه اللّه سـبحانه وتعـالى " فَأَقِـمْ وَجْهَـكَ لِلدِّيـنِ حَنِيفًـا فِطْـرَةَ اللَّهِ الَّـتِي فَطَـرَ النَّـاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْدِيـلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الدِّيـنُ الْقَيِّـمُ وَلَكِـنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لا يَعْلَمُـون " (الـروم- ٣٠)، ممـا يؤشـر علـى أن الحـرص علـى الإبقـاء علـى نقـاء الفطـرة يتطلـب نوعـا مـن الاسـتقامة لا يمكـن أن يحـدث إلا مـن خـلال عـلاج ربانـي قـادر علـى محاربـة الـداء بالـدواء المناسـب.

★★★

obeikandl.com